تجليات الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة؛ رواية (جسر للبوح وآخر للحنين) لزهور ونيسي نموذجًا

Manifestations of Identity in the Contemporary Algerian Novel: Zhor Ounissi's A Bridge for Confession and Another for Nostalgia as a Case Study

مكي مريم *
Mekki Meriem
المدرسة العليا للأساتذة بشار (الجزائر)
Higher Nomal School of bechar (Algeria)
mekki.meriem@ensbechar.dz

تاريخ الإرسال: 2026/03/15	تاريخ القبول: 2026/05/19	تاريخ النشر: 2026/09/02

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى مقاربة خطاب الهوية باعتباره مجالاً ثرياً استقطب الكثير من الأدباء، لأنها تفتح آفاقاً جديدةً لرؤية الذات، ومدى تصورها للعوالم التي تنتمي إليها، مجسداً في ذلك صورة الأنا، كنموذج يحاول صياغة الذات في ظل هيمنة الآخر، ولكون الخطاب الروائي عالماً لغويًا مؤسساً على أحداث الواقع، يحاول من خلاله الروائي محاكاة العالم الذي ينتمي إليه، ويستهدف توضيح الهوية، وتبني الخطابات التي تعبر عن تمثلاتها في الرواية، لهذا تمحورت إشكالية البحث حول المقوّمات التي تبنتها الروائية للتعبير عن الهوية الوطنية؟

نخلص في الختام إلى أن هذه الرواية خطاب يزخر بتجليات الهوية الوطنية، تعكس تمسّك الذات بمرجعياتها الثقافية والحضارية، حيث سخّرت الكاتبة مختلف الآليات التعبيرية لتمثيل هذا البعد، من لغة ودين وعادات وتقاليد، والجهاد في سبيل الحرية والصراع الذي يتجلّى في رفض الآخر مقابل السيادة الجزائرية، أو الانفتاح على الآخر من أجل التطور والازدهار دون التفريط في المقومات الوطنية، لهذا تعددت الروافد التي تستند إليها الكاتبة في بناء خطاب الانتماء، حيث يشكّل التاريخ المجيد والثورة الجزائرية مصدراً خصباً لاستحضار قيم البطولة، في حين يعكس التنوع الثقافي والوطني والديني والاجتماعي عمق الانتماء في أبعاده الفردية والجماعية.

الكلمات المفتاح: الهوية، الوطنية، الروائية، الأنا، الآخر، الجزائرية.

Abstract :

This study examines the discourse of identity in contemporary Algerian fiction through a critical reading of A Bridge for Confession and Another for Nostalgia. It is guided by the question of how the novelist represents national identity through

* مكي مريم: mekkimeriemunv@gmail.com

narrative strategies that construct the self in relation to the other. The novel is approached as a linguistic space grounded in lived reality, where identity is shaped through language, religion, customs, traditions, historical memory, and the experience of resistance. The analysis shows that the text expresses a strong sense of belonging rooted in cultural and historical references, particularly the memory of the Algerian struggle for freedom. It also reveals a tension between rejecting the other to affirm sovereignty and engaging with him for progress, while preserving national identity and its collective values across individual and social dimensions.

Keywords: Identity, Nationality, Novelist, Self ,Other ,Algerian.

المقدمة:

تُعدّ مسألة الهوية من المسائل الجوهرية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر، فهي تشكّل خصوصيته الأساسية، حيث غدت الرواية الجزائرية الميدان الخصب لخطاب الهوية، سواءً ما تعلّق بالعرق أو الدين أو الجغرافيا أو الطبقة أو الجنس، وقد عمد الكاتب الجزائري إلى إنتاج قراءة فاعلة وحية، تكشف عن عمق ارتباطه بماضيه، كما عبّر الإبداع الروائي المعاصر عن مدى تعلقه بوطنه وبتاريخه وثقافته، خاصة أن الرواية هي من أكثر أشكال الفن الأدبي تصويراً للمراحل التاريخية الإنسانية، وللتطورات الثقافية والفكرية.

إنّ الخطاب الروائي ميدانٌ متشعّب الأحداث، متعدّد الأبعاد والأشكال فهو فضاءٌ حكائيّ مفتوح يتمتّع بالحرية في العرض والتصوير، كما أنه عالم وثيق الصلة بالواقع وبمختلف تمظهراته، يفككه ويكشف خباياه ويحلل مكوناته الماضية والحاضرة، ويسهم في استشراف المستقبل؛ من هنا برزت الحاجة إلى مساءلة الهوية في الخطاب الروائي، والبحث عن الدلالات ذات الأبعاد الوطنية في النص الروائي الجزائري المعاصر، وذلك لارتباط الهوية بالفرد والجماعة ومن ثمّ تبيانُ قدرة المبدع على أن يكون لساناً ناطقاً عن ذاته وعن مجتمعه، من خلال مساءلته لخطاب الهوية، كما أن مساهمته في معالجة هذه القضية، يعكس تساؤلات الفرد الجزائري عن العلاقة التي تربطه بتاريخه ووطنه وثقافته خاصة أنه يعاني من زعزعةٍ في تكوّن هويته، ناتجة عن الظروف التي فرضها الاستعمار الفرنسي، ومن هنا برزت الحاجة الماسة إلى ضرورة التمسك بالهوية الجزائرية، والإشادة بالانتماء الذاتي كلما سنحت الفرصة بذلك .

تعدّ الهوية عاملاً أساسياً يُعبّر عن الانتماء الذاتي والوجود الحضاري، لهذا غدت مادةً غنيةً وجد فيها الروائيون ضالتهم، كلٌّ من وجهة نظره الخاصة، ولم يغفل الروائي الجزائري عن أهمية خطاب الهوية في نصوصه، لهذا وقع اختيارنا على رواية " جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي، نموذجاً نهدف من خلاله إلى مقاربة خطاب الهوية، خاصة أن الروائية تنطلق من الحاضر لتعبّر عن الماضي، حيث تغوص الذات عبر الذاكرة في عمق التاريخ الذي أسهم في بناء هوية الأمة الجزائرية، وقد شكّلت هذه الرواية جسر وصلٍ بين الماضي والحاضر، لتتجلى عبر ثناياها هوية الفرد

الجزائري، بمختلف أبعادها التي تسهم في تكوين الهوية الوطنية، وبما أن الروائي جزء من هذا الواقع فإنه يسلط الضوء على المقومات التي يقوم عليها المجتمع، معبّرًا عنها بالأسلوب المناسب، والذي يشكّل بدوره صلة وصل بينه وبين القارئ، من هنا تولدت عندنا الحاجة حول قراءة خطاب الهوية في هذه الرواية، وطرح الإشكالية الآتية: ما هي الأبعاد والآليات التي اعتمدتها الروائية للتعبير عن الهوية الجزائرية؟

تهدف الدراسة إلى إبراز المقومات الوطنية التي اعتمدتها الروائية في سبيل التعبير عن تمسّك الأنا بانتمائها وهويتها، في مقابل غطرسة الآخر ومحاولته تدنيس الهوية الوطنية، لهذا نقارب خطاب الهوية، ونروم من خلاله الكشف عن العلاقات والصيغ التي تتآلف بواسطتها الهوية الوطنية الجزائرية، وذلك على اعتبار أن الروائية تتناول مرحلتين: مرحلة الثورة والنضال (ما قبل الاستقلال)، ومرحلة ما بعد الاستقلال، محاولةً استحضار التاريخ من خلال الذاكرة التي تعبّر بواسطتها عن تاريخ أمة، وثقافة شعب، وهوية وطنية جزائري، وقد جاءت الدراسة مقسّمةً إلى عدة عناصر حيث نعالج الإطار النظري لمفهوم الهوية، ثم نقارب الرواية ونفككها من خلال عناوين متنوعة تتمثل في تشتّت الهوية وانقسام الذات، وأثر دلالة التاريخ والثورة في تشكّل خطاب الهوية، والهوية الوطنية، والأنساق الثقافية والحضارية، وفي الأخير، نختم بجملة من النتائج التي تبلورت لدينا أثناء تحليل الرواية ومقاربتها.

أ- الهوية بين تعدد الدلالات وإشكالية المفهوم:

تتعدد دلالات ومعاني الهوية، نظرا لتنوع حقولها المعرفية، كعلم النفس والاجتماع والأدب والفلسفة والدين، مما يؤدي إلى اتساع مفاهيمها وشموليتها، وصعوبة ضبط تعريف شامل جامع، بالإضافة إلى أنها تنحدر عن أصل فلسفي بحت ذلك لارتباطها بالوجودية والمثالية والميتافيزيقا، غير أنّ ما يعنينا في هذه الدراسة هو ارتباطها بالخطاب الأدبي والروائي، لذلك سنحاول التركيز على المفاهيم التي تتعالق دلاليا مع مجال الأدب والنقد، فالهوية" لغوياً أن يكون الشيء هو هو وليس غيره، وهو قائم على التطابق أو الاتساق في المنطق...ولفظ) هوية(Identité من الضمير (Id (أي (هو)" (حنفي، 2012، صفحة 10) تقوم الهوية من هذا المنطلق على التطابق مع الذات والأصل، فهي "خاصة بالإنسان والمجتمع، الفرد والجماعة، هي موضوع إنساني خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي، أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون ، بين الواقع والمثال بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل..." (حنفي، 2012، صفحة12) ، فالهوية موضوع إنسانيّ خالص يرتبط بالإنسان في علاقته بذاته ومجتمعه، ويتشكل من خلال جدلية الماضي والحاضر والمستقبل؛ أي إنها ليست معطًى ثابتًا، بل سيرورة تطورية تتفاعل فيها الخبرات الزمنية لتشكّل وعي الإنسان بذاته وانتمائه.

تُعرّف الهوية بأنها "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (الجرجاني، 1985، صفحة278) وبذلك تشتمل الهوية على تلك الحقائق المطلقة المتأصلة في الكينونة، سواء أكانت فردية أم جماعية، من خلال التمسك بالأعراف والتقاليد، ومختلف المظاهر الثقافية والتاريخية والاجتماعية والنفسية التي تسهم في تشكل الفرد والجماعة، كما أنّ الهوية "سارية في جميع الموجودات ما إذا أخذ حقيقة الوجود لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء " (الجرجاني، 1985، صفحة278) فهي مرتبطة بالوجود لا تحكمها شروط، وتدل على الكيان وعلى الأصل، و"تستعمل(..) للإشارة إلى المبدأ الدائم، الذي يسمح للفرد، بأن يبقى(هو هو) وأن (يستمر في كائنه) عبر

وجوده السردي، على الرغم من التغيرات، التي يسببها أو يعانيها" (علوش، 1985، صفحة225) وبذلك ترتبط الهوية بإشكالية الوجود الإنساني، إذ يبقى الإنسان متمسكاً بأصوله رغم التحولات التي تطرأ عليه، محافظاً على صلته بكينونته رغم الظروف التي يشهدها أو يعانيها، وإذا ما حاولنا الربط بين هذا المفهوم والمجال الأدبي، نقول بأن الهوية من خلال الخطاب الروائي تمثل انعكاساً للذات الروائية في ثنايا الحكي، كما يعبّر السرد عن المجالات التي تتجلى فيها هوية الفرد أو الجماعة، على اعتبار أن الرواية هي فنٌ إبداعيّ لا يلغي الواقع، بل يعيد تشكيله.

يذهب كل من باتريك شارودو ودومينيك منغنو، في معجم تحليل الخطاب، إلى أنّ تحديد مفهوم الهوية أمرٌ عسير، نظراً لتمركزه في أغلب العلوم الإنسانية والاجتماعية، مما يكتسبه نوعاً من الضبابية ويُصعّب الوقوف على تعريف محدد له، غير أنّهما يحاولان مقاربة هذا المفهوم من خلال حقل تحليل الخطاب، مضيفين إليه مفهومين أساسيين هما: الذات والغيرية، إذ يرتبط المفهوم الأول بوجود الكائن المفكر القائل "أنا"، في حين يفيد المفهوم الثاني أنه لا وعي بالنفس دون وعي بوجود الآخر، وأنّ الذات تتشكّل وفق درجة التمايز بين "النفس" و "الآخر"، ويتوسّع الباحثان أكثر في تحديد مفهوم الهوية من خلال الخطاب، فهي تُبنى في ميدانين مختلفين ومتكاملين، يرتبطان بفعل التلفّظ: هوية تسمى "شخصية" وأخرى تسمى "موقعية"، فالهوية الشخصية تنقسم إلى هوية خارجية، وهي هوية الذات المتواصلة ، المتمثلة في مجموعة من السمات المحدّدة لها كالسن والجنس والوضع، والمكان و صفاتها الانفعالية، وكل ما يرتبط بالهوية النفسية والاجتماعية، وهوية خطابية تسمّى "داخلية" وهي هوية الذات المتلفّظة التي يمكن وصفها بواسطة مقولات كلامية، عبر تحليل الكلام والأدوار التلفّظية وطرق التدخل، وينتج الخطاب عن طريق الترابط والتفاعل بين السمات الداخلية والخارجية؛ أمّا الهوية الموقعية فتختص بالموقع الذي تحتله الذات داخل الخطاب عن طريق العلاقة بالقيم السائدة فيه. (منغنو، 2008، صفحة 291-292)

إنّ الهوية، وفق ما سبق، ترتبط بالذات وبالآخر، حيث تتحقق من خلال الوجود النفسي الذاتي، وكذلك الوعي بوجود الآخر، كما تنقسم إلى هويةٍ شخصية ا تعبّر عن الذات في علاقاتها الداخلية والخارجية، وهويةٍ موقعية تعكس واقع الذات، وبناءً على ذلك، يمكن القول أنّ الهوية تمثّل تعبيراً عن مجمل العناصر التي تسهم في تشكيل الذات وطبيعة علاقاتها وتفاعلها مع الواقع الذي تحتله.

يقابل حسن حنفي بين الهوية والغيرية، ليفصّل في هذه الثنائية الضدية القائمة تقوم على التعارض، فالهوية على حدّ تعبيره، هي أن يكون الإنسان متطابقاً مع ذاته، في حين تنشأ الغيرية أو الاغتراب عندما ينحرف الإنسان عن ذاته فيشعر بالاغتراب، فالاغتراب هو أن يكون الإنسان غير نفسه؛ فالهوية تقوم على التطابق، بينما يقوم الاغتراب على الانحراف، وبذلك تنقسم الذات إلى هوية ثابتةٍ وغيريّة تجذبها وتنازعها (حنفي، 2012، صفحة12). ومن هذا المنطلق، تعّرف الهوية بأنها "تشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يتميز به الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائص ومميّزات ومن قيم ومقومات" (رضوان، 2012، صفحة87) كما أنّ الهوية ليست نمطًا واحدًا، بل تتعدّد إلى هوياتٍ: ثقافية، وحضارية، ووطنية، وقومية، ودينية.

تتبلور الهوية من خلال "الذات" أو "الأنا"، غير أنّ مصطلح «الآخر» ينبثق في الآن ذاته بوصفه عنصرًا يقابل الذات، فالآخر "في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض(الذات) أو (الأنا) ...ولعل سمة الآخر المائزة هي تجسيده ليس

فقط كل ما هو غريب (غير مألوف) أو ما هو(غيري) بالنسبة للذات أو الثقافة ككل بل أيضا كل ما يحدد الوحدة والصفاء" (البازغي، 2002، صفحة21) ، وعليه يشكّل الآخر ثنائيةً ضدية مع الذات، إذ يعكس كل ما يخرج عن دائرتها، غير أنّ هذا التعارض أو العلاقة الضدية في هذه الثنائية لا تدل على التناقض، بقدر ما يؤسس لعلاقة ترابط إذ يقوم كلٌّ منهما على الآخر، لأن الأنا" لا تحدد نفسها وانفصالها عن الآخر إلا بمقابلتها له في بنية تجمعهما معا، ولذلك تصبح الأنا وظيفة من وظائف تحدي الآخر وتابعة له، وليست أصلا سابقا" (البازغي، 2002، صفحة112) ، ومن ثمّ، لا تروم هذه الدراسة الخوض في تفاصيل العلاقة الجدلية التي تحكم الأنا والآخر، بقدر ما تقرّ بأن هذه الثنائية لا تقوم على التناقض، بل على التكامل، حيث يغدو كلٌّ منهما شرطًا في وجود الآخر، وبناءً على ذلك، يمكن القول إنّ الهوية، من خلال الخطاب الروائي، تعكس ذات الكاتب، والذات الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها، وكل ما يدخل في تشكيل كينونته، كما تتجسد عبر العمل السردي، في حين يمثل كل ما يقع خارج الأنا "الآخر"، فالهوية تتشكّل من خلال منظومة الأفكار والتصورات والانتماءات الاجتماعية والثقافية والدينية، التي تحدّد انتماء الفرد إلى جماعة معينة، أو تضبط الشروط التي تتكوّن بها جماعة ما، ومن ثَمّ تُسهم في خلق التمايز بين الأفراد والجماعات وفي المقابل، يتجسّد الآخر بمظاهره الخاصة، بما يعمّق الاختلاف بين الأنا والآخر ، غير أنّ الكاتب، أثناء تعبيره عن هويته وتمسّكه بها من خلال العمل الإبداعي، تدفعه الحاجة إلى استحضار الآخر بوصفه عنصرًا فاعلًا يُسهم في إبراز هذه الهوية وتحديد ملامحها.

نعتمد على المفاهيم السابقة لطرح إشكالية الهوية من خلال رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" حيث تتناول الكاتبة عدة مواضيع أهمها: حب الوطن ، والهجرة والاغتراب، وعلاقة الأنا بالآخر، وذلك في إطار سردي يقوم على البعد النفسي واسترجاع الذكريات لدى الشخصية الرئيسية "كمال العطار" فالرواية، كما صرّحت الكاتبة، "تحكي التاريخ من خلال الذكريات وقد استطعت فيها تقمص شخصية البطل الذي يعبر عنه ضمير المتكلم" (عمار، 2007) وقد غاصت الكاتبة، عبر تقنية الاسترجاع، في التراث العريق، والحب الأزلي، والحرب، والحق، والعدل، مما يعكس أبعاداً ثقافية ودينية واجتماعية وتاريخي وسياسية، تتجسّد من خلالها الهوية، في فضاء سردي مشحون بالعواطف والتجارب الإنسانية، وتستند الكاتبة في بناء هذا التمثيل إلى الذاكرة بوصفها آلية إبداعية، كما ورد في مقدمة الناشر في آخر الرواية، فهي "رحلة إلى أغوار تاريخ مدينة، رمز لكل الوطن، برقّها المقدس(سبعة): في جسورها وقصباتها وأوليائها، وما يحمله كل ذلك وغيره من زخم تراثي، وموروث شعبي وظفته الكاتبة بإبداع ثوري لتضيء به محطات كثيرة في حياتنا القادمة" ، وهكذا تُشكّل هذه الرواية فضاءً خصباً يطرح عمق ارتباط الكاتب بهويته، ووعيه بضرورة تصوير واقعه في مختلف أبعاده الاجتماعية والثقافية والسياسية والتاريخية، خاصة في ظل المرحلة التي يعيشها الفرد والتي تشهد تحولات وتطورات، وكل ما يمكن أن إدراجه ضمن سياق ما بعد الحداثة، إذ إنّ "المنتج الأدبي في حد ذاته سيكون رافدًا معرفياً ثقافياً للمتلقين، يؤثر بدرجات متفاوتة في وعي كل فرد، خاصة إن طرحت الرواية قضايا تتعلق بالأنا والآخر والتراث والثقافات الوافدة طوعاً أو قسرًا" (رايس، 2017، صفحة184) وبهذا تغدو الرواية رافداً مهمًا في تكوين الوعي الفردي والجماعي، انطلاقاً من التجارب والخلفيات الأيديولوجية التي تُبنى عليها، ومن

خلال تفاعلها مع الثقافات الوافدة، حيث تؤدي وظيفةً نقديةً وجماليةً، تضع المتلقي أمام أسئلة وجودية وثقافية، وهكذا تصبح الرواية، فضاءً مفتوحاً على الواقع، يجسّد أشكال الانتماء الفردي والجماعي.

ب- أبعاد الهوية في رواية "جسر للبوح وآخر للحنين":

نسعى في هذا المحور إلى مقاربة الهوية بوصفها مفهومًا مركّبًا ومتعدد الأبعاد، تتظافر فيه المستويات النفسية والتاريخية والثقافية والوطنية، باعتبارها ليست معطى ثابتًا، بل سيرورة متفاعلة تتأثر بتوترات الذات وبالمرجعيات التاريخية، وما تحمله من دلالات تأسيسية، لاسيما مرحلة الثورة بوصفها لحظة مفصلية في بناء الوعي الجمعي، كما تبرز الأنساق الثقافية والحضارية باعتبارها فضاءً منتجًا للقيم الوطنية، يسهم في توجيه علاقة الفرد بجماعته وبمحيطه، وهكذا تتوزع هذه الدراسة على مجموعة من العناصر التي تعالج هذه الإشكالات من زوايا تحليلية مختلفة.

1- تشتت الهوية وانقسام الذات:

يعدّ تفكك الهوية والانقسام الذاتي من أبرز الظواهر التي تطرحها هذه الرواية، حيث يعكس هذا المفهوم حالة التوتر التي يعيشها الفرد بين ماضيه وحاضره، وبين الذات والآخر، فالذات في النصوص السردية كثيراً ما تظهر منقسمة، تبحث عن توازن بين الأصالة والانفتاح، وبين الذاكرة الجماعية والتجارب الفردية، ومن ثَمّ يشكّل هذا الانشطار مؤشراً على تحولات الهوية، التي تتشكل باستمرار تحت تأثير التحولات التاريخية والسياسية والثقافية، من هنا تتجلى أهمية مساءلة هذه الظاهرة في الخطاب الروائي، لتغدو الرواية فضاءً نقدياً يكشف عن تمزقات الذات، ويعيد طرح سؤال الهوية في ضوء جدلية الأنا والآخر، بما يتيح للقارئ إعادة التفكير في معنى الانتماء وحدوده في عالم متغير.

بعد أن كان "كمال العطار" مغترباً عن وطنه، أصبح مغترباً وهو في وطنه يعاني من ذلك الاغتراب الروحي والفكري، وبهذا نلحظ ذلك الغموض والتشتت اللذين يطغيان على الشخصية الرئيسية وهي في حالة بحث عن أصولها أو رجوع إليها، كما يتجلى في هذا الشاهد "عندما لفظ القطار كمال العطار مع الآخرين، ومع بقايا وقود محترق، كانت عيناه تنظران في كل الاتجاهات، كان تائهاً يبحث عن قريبٍ أو صديقٍ ينتظره، في مدينةٍ يبدو أنها أكلت كل الأصدقاء..." (ونيسي، 2007،صفحة5) ، تطرح لنا الكاتبة من خلال هذا المشهد مشاعر التيه والضياع التي تعانيها منها الشخصية البطلة، وبالتالي الانقسام الذاتي والتشتت في سبيل العثور على الأنا، ويعكس هذا الوضع حالة من القلق الوجودي الذي يعيشه البطل، بفقدانه الإحساس بالانتماء والاستقرار، كما يتجلى صراعه الداخلي في محاولته إعادة بناء ذاته واستعادة توازنه النفسي وسط واقعٍ متغيرٍ لا يمنحه الطمأنينة.

تجسد لنا الرواية الصراع الذي يعانيه البطل في رحلة بحثه عن ذاته في تلك الحقبة الفتية من الاستقلال، وهو الذي عايش الاستعمار الفرنسي في الجزائر، مما دفعه إلى الهجرة والاغتراب عن وطنه، ليعود بعد الاستقلال وهو حاملٌ لمشروعه الذاتي في محاولةٍ منه لرسم تصوراته الجديدة لحالة الأنا، بعيداً عن تلك الفترة التي شهدت طغيان الآخر في ظل الاستعمار الفرنسي، لكن تتشكل خيبة الأمل من تلك الصدمة التي يقع فيها البطل، جراء الظروف السياسية والاجتماعية التي تشهدها البلاد، لذلك تلتمس الروائية استراتيجيات متعددة لتصوير الهوية من خلال استثمار الإرث الثقافي والتاريخي والسياسي ، ذلك أن "أبرز الأبعاد الأساسية التي تشكل هوية الإنسان الجزائري منذ

فترة الاستعمار إلى غاية فترة الاستقلال...هي العروبة واللغة العربية الوطنية، القومية، الدين الإسلامي، الثقافة بكل ما تحمله من عادات وتقاليد" (درنوسي، 2020، صفحة91) يبرز هذا القول أن الهوية كانت نتيجة ثمرة تفاعل مجموعة من المقومات الأساسية التي حافظت على استمراريتها رغم ظروف الاستعمار، فقد شكلت العروبة واللغة العربية والدين الإسلامي ركائز جوهرية في بناء الوعي الجماعي، إلى جانب الثقافة بما تحمله من عادات وتقاليد، مما أسهم في ترسيخ الإحساس بالانتماء والمحافظة على الخصوصية الوطنية؛ إلا أن المفارقة تقع عندما يواجه الأنا واقعه بعد الاستقلال الذي تصفه الكاتبة بقولها "لقد تغير كل شيء وتضببت المفاهيم، لم يبق إلا الإعلان رسميًا عن اتهامنا بالجريمة، فقط لأننا حررنا هذا الوطن، وربما في يوم ما نحاكم على هذه الجريمة أبشع محاكمة عبر المحاكم الدولية" (ونيسي، 2007، صفحة268) من هنا تتشكل خيبة أمل "الأنا" وصدمته مع الواقع الذي فاق تصوراته، فبعد تحقق الحرية والاستقلال، تراجعت الآمال والأهداف المسطرة في مواثيق الثورة لتصبح مجرد سطور تحتضنها الأوراق ويفتقر إليها الواقع، وبهذا يتحول حلم النصر عند "الأنا" إلى جريمة؛ وتتحسر "الذات" على تلاشي حلم بناء الوطن "إن ما كنا فيه جهادٌ أصغر، وهو عبارة عن بداية لبناء وطن وترميم أمة، بعد أن قبرت الأمة أكثر من قرن وربع قرن، وألغيت من حركة الزمان، لكن الفتنة، لم تتركنا نكمل المشوار (ونيسي، 2007، صفحة203-204).

تتعدد الآليات التي تعتمدها الكاتبة في سبيل تصوير هوية الفرد الجزائري، ومدى تعلقه بوطنه وانتمائه فتستحضر مختلف الآليات للتعبير عن الذات الفردية والجماعية، فتنوعت بذلك المواطن التي تُصوّر فيها الهوية الجزائرية، مما أدى إلى اتساع بنية الرواية، لتتحول إلى فضاءٍ خصب يعكس أهم الأحداث التاريخية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، ذلك لأن "الأديب الحق يحمل هموم مجتمعه، ويحرص عليه حرصه على نفسه، فهو ملاذ أفراحه وأحلامه، تجتمع فيه ذاكرة الماضي إلى جانب رؤى المستقبل، لذلك حين يقدم صورة لمجتمعه تكون مطبوعة بطابع العلاقة الاجتماعية والنفسية والاخلاقية الوثيقة التي تشد الأديب إلى مجتمعه وما يشكل هويته"(حمود، 2010، صفحة15) من هنا يمكننا القول بتعدد الأوجه التي تُعبّر عن الهوية في هذه الرواية والتي سنحاول رصدها عبر العناوين الآتية.

2- أثر دلالة التاريخ والثورة في تشكل خطاب الهوية:

يشيع في الرواية ذلك الخطاب الذي ينعي مرحلة تاريخية ويبشر ببروز مرحلة أخرى ويبين تمسك الروائية بإرث المرحلة السابقة، في محاولة لإعادة كتابة التاريخ لكن بمفردات جديدة تتصف بلغة القوة المهيمنة والتماهي مع روح العصر، لهذا يتجلى تاريخ الجزائر الثوري في هذه الرواية بشكل مقدس، فرغم انتماء الشخصية البطلة لمرحلة الاستقلال إلا أنها وليدة تلك المرحلة الثورية، وشاهد على انتزاع حقوق الأنا في ظل سيطرة الآخر، ذلك أن "الأنا" هو المجاهد والمناضل الذي يدافع عن هويته الوطنية والقومية مقابل غطرسة "الآخر" المتمثل في الاستعمار، الذي يهدف إلى طمس الحريات والهويات، إلا أن الثورة الجزائرية كانت بالمرصاد، فهي تعد من "أبرز الثورات العربية التي واجهت المدّ الاستعماري لمدة طويلة وتكللت بالنجاح، مستعينة في ذلك بالحفاظ على ذاتها وهوّيتها والتقيّد بكل مواثيق الثورة ضد كل سياسات التهجين والتدجين والطمس التي مارسه معها" (درنوسي، 2020، صفحة93) فقد لبت الشخصية البطلة وصديقه "مراد" نداء الوطن "والتحقا معًا بالعمل مع فدائي المدينة، عندما اندلعت ثورة التحرير، ودعا قادتها طلبة الثانوي والجامعة للإضراب عن الدراسة بالمدارس الفرنسية، ليلبوا النداء رافعين شعار(الشهادة لا

تجعل منا جثثا أفضل)" (ونيسي، 2007، صفحة66) وبهذا تتعدد المواقف الثورية التي تعالجها الكاتبة، وتتنوع معها الانفعالات والعواطف المرافقة لها، بما يجعلها تمثل نقطة تحول حاسمة في مسار الشخصية البطلة، كما يتضح في قولها: "لتأتي الأحداث الجديدة، الثورة وبرنامجها، ونشاطه الفدائي بالمدينة مع صديقه مراد، وتضع حدًا لمشروعه العاطفي، وتتوضح له أمور كثيرة، وكأنه كان يعيش في عالم ضبابي، الرؤية فيه منعدمة..." (ونيسي، 2007، ص 97). وفي هذا السياق، تعتمد الكاتبة على تعدد الشخصيات مثل مراد، والفدائية مريم وأخواتها، ومعمر، وفضيلة، ومحمد، وحملاوي، إلى جانب عدد من النشطاء والشباب، من أجل تجسيد العمل الفدائي في أبعاده الجماعية، بما يعكس سعي "الأنا" إلى استعادة الحرية والسيادة في مواجهة "الآخر".

تصف الكاتبة بشاعة المستعمر وتجمع بين حلم "الأنا" وطغيان "الآخر"، من خلال خطاب يبرز الثورة بوصفها مسارًا نضاليًا متجددًا يقوم على الفداء والاستشهاد وتحرير الوطن، في مقابل مشروع استعماري يقوم على القمع ومحاولة تغيير الإنسان نفسه وإبادته واستبداله، بما يعكس نزعة استعمارية لا تكتفي بالسيطرة على الأرض، بل تمتد إلى الهوية، كما تُبرز الرواية أن هذا الفعل الاستعماري، رغم طبيعته التدميرية، لا يمكن أن يبرر المساس بحرية الإنسان وكرامته وسيادته؛ وتستحضر الكاتبة في هذا السياق بعض المحطات التاريخية الدالة مثل السجون الاستعمارية (سجن الكدية، وسجن لامبيز بالأوراس) وأحداث 8 ماي 1945 لتجسيد حجم المعاناة التي عاشها "الأنا" في مواجهة "الآخر"، قبل أن يُتوج هذا المسار بإبراز لحظة الانتصار الوطني، حيث يتجلى الإحساس بالانتماء واستعادة الهوية، بما يعكس تحقق حلم الذات بعد مسار طويل من المقاومة والتضحية فكانت عزيمة الشعب أقوى، وتحققت متعة "الذات" ولذة الانتصار. (ونيسي، 2007،صفحة99-113-184)

فعلى مستوى الهوية التاريخية، تتبنى الكاتبة الأحداث الثورية معيارًا مركزيًا تتشعب من خلاله الأحداث المختلفة المرتبطة بالجهاد والاستعمار، بما يسهم في تشكّل هوية "الأنا" عبر صراعها مع "الآخر"، وتتصدع هذه الهوية بين ذات مناضلة في سبيل الوطن، وأخرى متحررة من كل قيد، رافضة لمختلف أشكال الاستعباد والاستعمار، ولا يقتصر هذا الرفض على الاستعمار الفرنسي فحسب، بل يمتد إلى استحضار "الآخر" في صورته اليهودية، من خلال إبراز دوره في خدمة المشروع الاستعماري، إذ يُقدَّم في الرواية بوصفه فاعلًا اقتصاديًا واجتماعيًا، ساهم عبر نشاطه الربوي في الضغط على الأهالي تمهيدًا للاستيلاء على أراضيهم، كما تشير الروائية إلى دوره كوسيط ومترجم للاحتلال، وصولًا إلى استفادته من قانون "كريميو" سنة 1870، بما عزز حضوره داخل البنية الاستعمارية وأظهر عداءه المعلن للعرب ومجابهتهم جهراً وعلانية (ونيسي، 2007، ص 54). من هنا تُبنى صورة الهوية العربية في مقابل هذا "الآخر" عبر خطاب روائي مشحون بتوترات تاريخية واجتماعية، يعكس مشاعر الرفض تجاه من يُنظر إليهم كمتواطئين مع الاستعمار، حيث يتم تحميلهم مسؤولية المشاركة في تكريس معاناة "الأنا" التاريخية، كما يتعزز هذا التصور من خلال استحضار دلالة الصراع الرمزي بين قابيل وهابيل، في تساؤلٍ دالّ على عمق التوتر التاريخي: "هل العرب وإسرائيل هما قابيل وهابيل العصر الحديث؟" (ونيسي، 2007، ص 53)، بما يفتح المجال أمام قراءة رمزية للصراع بوصفه امتدادًا لصراع وجودي بين طرفين متقابلين.

تتجلى في الرواية بعض المواقف التي تعكس توترًا حادًا في رؤية بعض الشخصيات للآخر، حيث يعبّر "مراد" صديق الشخصية الرئيسية، عن موقف انفعالي مشحون تجاه اليهود والنصارى، بيقوله: "والله يا أخي عندما أرى يهوديًا أو نصرانيًا، تأخذني حالة غريبة، ولولا بقية من عقل، لقتلت كل من وجدته في طريقي منهم، انظر إليهم، لهم كل شيء ولا شيء لنا سوى الفقر والحرمان... انظر، أنظر، كم أتمنى أن تلبس أختي نفيسة مثلما تلبس نيكول وسوزان وراشيل، إنها أجمل منهن جميعًا أليس كذلك؟" (ونيسي، 2007، ص 114). ويعكس هذا الخطاب، الصادر عن الشخصية، حالة نفسية واجتماعية متأزمة، تعكس شعورًا بالحرمان والتفاوت الطبقي، أكثر مما تُعبّر عن موقف سردي للكاتبة. ومن خلال هذا التمثيل، ينقل النص القارئ إلى واقع اجتماعي مضطرب كانت تعيشه بعض الفئات، وما رافقه من توترات داخلية انعكست على تصورات "الأنا" للآخر.

تحتضن الكاتبة كل الإمكانيات في سبيل تصوير الهوية الجزائرية، ليتحول الخطاب الروائي إلى فضاء خصب لنمو الهوية وتمسك السارد بالتاريخ في سبيل تكوين الهوية، حيث أن الرواية "أكثر أشكال الفن الأدبي تصويرًا للمراحل التاريخية الإنسانية وللتطورات الأخلاقية والفكرية" (الغني، 1999، صفحة84) وبهذا تتنامى الهوية الذاتية من خلال ذلك الصراع التاريخي المجسد في الثورة، والذي يصبح بمثابة الدافع القوي لبناء الهوية الذاتية، فالثورة لا تسترجع الوطن فقط، بل تسترجع من خلاله كل المقومات التي تسهم في بناء الهوية؛ مما يدفعنا إلى القول بجرأة الكاتبة وإبداعها في احتضان الذاكرة وبالتالي القول بانكسار زمن الصمت واندماج الكاتبة في "عالم الكتابة مفجّرًا تلك المناطق المضمورة في الذاكرة، جعل إبداعها متميزًا، محتضنًا لاستعمالات فنية جديدة" (السائح، 2012، صفحة7)

احتضنت الرواية الخطاب التاريخي والسياسي بكل ما يحمله من تناقضات، وتناولت سياسة الحزب الواحد الذي كان هو حزب الثورة ثم حزب الاستقلال، وتبنت "تلك المرحلة بالذات، وكان اعتماد منظور سياسي واقتصادي معين أكثر من حتمية، في وقت كانت الرأسمالية والإمبريالية هي الاستعمار والتبعية، والاشتراكية والعدالة الاجتماعية هي الحرية وتقرير مصير الشعوب...إن الإنسان في كل مكان لا يعيش منفصلاً عن محيطه الاجتماعي والسياسي وحتى الاقتصادي، وحتى نوع الثقافة التي تميزه كهوية حضارية" (ونيسي، 2007، صفحة246) وهكذا تُعدّد الروائية على لسان الشخصية الرئيسية الروافد التي تشكل هوية المجتمع الجزائري، والتي عملت عبر ثنايا الخطاب الروائي على تبيانها وتحليلها لترسيخ ثوابت الهوية الوطنية.

صوّرت لنا الكاتبة أبعادًا سياسية متعددة تعبّر من خلالها عن الخيبة والغضب، ورفض الواقع الذي آلت إليه البلاد، وذلك عبر تناولها للحملات الانتخابية التي وصفها "كمال العطار" بالنفاق والجهل، حيث يتحول فيها المواطن، الذي يكون مهمّشًا في الظروف العادية، إلى شخصية ذات مكانة رمزية مؤقتة أيام الانتخابات. وفي مقابل هذا البعد السياسي، يبرز خطاب الرفض الممزوج بالاعتزاز بالشعب الجزائري، كما يتجلى في قوله: "صاحب القرارات التاريخية الهامة، إنه لا يمكن أن يكون كذلك، وهو الذي صنع أنصع صفحات التاريخ بنفسه، إنه لا يمكن أن يكون كذلك، بل إنه هو القائد التاريخي..." (ونيسي، 2007، ص 225)، وهو خطاب يعكس تمجيدًا لدور الشعب في صناعة تاريخه وتأكيدًا على فاعليته التاريخية.، في السياق نفسه، تحفل الرواية باستحضار التاريخ بوصفه دعامة أساسية في البناء

الحضاري، ومرجعًا رئيسيًا في تثبيت الهوية الذاتية، إذ يُقدَّم بوصفه سجلًّا لأمجاد الأبطال، ووعاءً تحفظ فيه الشعوب تراثها وقيمها ومبادئها، بما يجعل منه محورًا رئيسًا في ترسيخ الوجود وتحقيق الانتماء.

3- الهوية الوطنية:

يتنامى حب الوطن عبر ثنايا الخطاب الروائي، هذا الأخير الذي كان نتاج حديث فكري ونفسي حول الحب الوطني، خاصة أن الرواية في مجملها كانت إهداءً "إلى قسنطينة...المدينة المستعصية دومًا على الامتلاك" فقد "يصل هذا الانتماء بالكاتب الجزائري والأديب (الأنا المثقفة) أن يهدي كتابه إلى مدينة وحيدة لمدى تعلقه بها" (بولشفار، 2020، صفحة391) ؛ وراحت الكاتبة تترجم الإحساس بروح الانتماء الوطني واتحاد الذات مع الوطن، في محاولة لترسيخ معاني الاستقرار والوجود وحب الوطن والولاء له، فشكّل ذلك الحديث النفسي موطنًا للكينونة والعواطف الوطنية، ولم تترك الكاتبة فرصة إلا وعبّرت صراحة عن هويتها الوطنية، وانتقلت من الجزء إلى الكل، من قسنطينة عبر أزقتها وشوارعها إلى الجزائر في تاريخها ونضالها، فغدت الوطنية البؤرة التي رُسّخت لها مختلف روافد الهوية، فالهوية التاريخية والثقافية والدينية عبّدت الطريق أمام الروائية، من أجل التعبير عن الهوية الأصلية التي تتحد من خلالها الذات مع الوجود.

فالمنزل والمدينة والأرض والزمن كلها آليات استغلتها الكاتبة لتصوير الحنين والشوق الذي يختلج شعور الشخصية البطلة، فالوطن تتصارع فيه الأحداث، وتتنامى فيه الشخصيات وتُسترجع فيه الذكريات، فالوطن هو الزمان والمكان الذي تحتضنه الرواية التي من أجله وُجدت، ويظهر هذا في قول الروائية على لسان الشخصية الرئيسية "وها أنا أرجع إليك يا مدينتي المتوهجة...لقد صنعت بآلامي الصغيرة انتصاراتك الكبيرة، عندما كنت أرضى بأن تبتلعيني في أزقتك الضيقة مع زمرة من الشباب، أصبح همهم اليقظة والوعي بالمكان والزمان، وغرس أقدامهم في تربتك الطرية واليابسة، وكتابة تاريخك وأحداثك بدمائهم وعذاباتهم وزنزاناتهم الرطبة، زمرة جمعتهم قضية غيرت همومهم وآلامهم الصغيرة الى آمال كبيرة شفافة رائعة...ليصبح وجه الحبيب نقطة في بحر الوطن، وتصبح المدرسة وما تلقنه من دروس جزءًا صغيرًا ثانويًا في كل عظيم لم نعرف عنه قبل ذلك شيئا إلا من خلال دروبك الضيقة..." (ونيسي، 2007، صفحة63) هكذا تتلاشى الأحلام في سبيل الوطنية، وتصبح مظاهر الحياة لا معنى لها من أجل الوطن لتعبّر الكاتبة عن التخلي عن كل الأحلام من أجل تثبيت موقفها إزاء الحلم الأكبر والحب الأزلي.

تتدفق المشاعر الإنسانية وتفيض بالحنين والشوق على لسان "كمال العطار"، الذي تتعانق من خلاله الذات الكاتبة مع الوطن، حيث يتجلى هذا الارتباط في قوله: "إنها هي التي صنعت وتصنع كل مرة مشاعري وأحاسيسي وأحلامي، بيوتها المتعانقة البالية تعلّم الحب وتزرع الدفء... إنها أبدًا حية في قلبي وعقلي، لأن الحب وحده هو الذي يستطيع أن يهزم الموت... هل أحبها كمدينة أم ككائن حي جمع كل الصفات الجميلة عبر التاريخ؟ ربما أحبها كتاريخ أريده أبدًا حيًا متحركًا منافسًا لتواريخ أخرى" (ونيسي، 2007، ص 135). ويعكس هذا الخطاب حضور "الأنا" في حالة اندماج وجداني مع المكان، حيث تحتضن الذات مشاعر الافتخار والاعتزاز بالوطن عبر تاريخه، في علاقة تجعل من هذا التاريخ مرجعًا حيًا تسعى الذات إلى استحضاره ومقارنته بالتواريخ الأخرى، في إطار من التماهي الرمزي مع الهوية الوطنية.

يصبح الماضي بكل آلامه وبجميع أحداثه وتفاصيله موطنًا للذاكرة، ترتمي فيه الذات للتعبير عن تعلقها الزمكاني حيث يتجلى هذا الارتباط العميق بالمكان بوصفه فضاءً متحوّلًا من مجرد معالم مادية إلى كيان رمزي مشبع بالانتماء حيث تستحضر صورة المدينة وهي متآكلة المعالم ومندثرة التفاصيل، لكنها رغم ذلك تظل حاضرة في الوعي باعتبارها وطنًا بكل أبعاده، يتجسّد في الوجه والقلب والدروب، بما يعكس تحوّل المكان إلى امتداد للذات وانصهارها في هوية جامعة تتجاوز حدود الزمان، كما يتجلى في قولها "ورغم ذلك لا زال يرى مدينته وهو يخطو عل عتباتها العجوز، يراها وطن، ووجهها وطن، وقلبها وطن، ودروبها عمق أعماق الوطن" (ونيسي، 2007، صفحة159) وفي السياق ذاته، تعمّق الكاتبة هذا التصور عبر رؤية تجعل من الوطن كيانًا كليًا يتجاوز البعد الجغرافي والزمني، ليغدو حاضنًا للأحلام ومصدرًا للرؤية الوجدانية العميقة، حيث يُقدَّم بوصفه فضاءً تتكثف فيه دلالات الحياة والانتماء، فتتجلى علاقة الذات به كعلاقة انصهار روحي تجعل الفرد يرى بوضوح أكبر، ويحلم بصورة أوسع، ويعيش شعور الحب والانتماء في أسمى تجلياته، بما يؤكد مركزية الوطن في تشكيل الوعي والهوية الجمعية، لهذا سخّرت الكاتبة عدة مشاهد للتعبير عن الوطنية كقولها "رغم أن الوطن هو الجسد الذي يرتمي عليه حلم الغد، والروح التي لا يحدها الأمس واليوم والغد، وما بعد الغد، إننا عند قدمي الوطن نرى أوضح، ونحلم أجمل، ونحب أكثر. "(ونيسي، 2007، صفحة181-182).

تنطلق الروائية من المكان "قسنطينة" وهي من أكبر مدن الجزائر، وتتميز بمنظرها الخلاب، وجسورها المعلقة، وتعاقب الحضارات عليها، تنطلق عبر ساحاتها وأزقتها وشوارعها، حيث يدخل كمال العطار عبر بابها فيقابله تمثال الرجل الروماني كنصب تاريخي لا يزال قائمًا، وتُشبّه الشخصية البطلة بأحد فرسان "مالطا" وهم في طريقهم إلى بيت لحم بالقدس، وها هو "كمال "يختبر ذاكرته ويتذكر أسماء الجسور السبعة: "باب الجابية، باب السويقة، باب الواد، باب القنطرة، باب الروح، باب الرحبة، باب المدينة...، ويحتل مكانته إلى جانب عشاق مدينته المقربون، وكل محاولات الاستيلاء على مدينته باءت بالفشل، لأنها المنصورة منذ "عقبة بن نافع" على حد تعبير الكاتبة؛ ها هو يدخل من "رحبة الصوف" ثم إلى "زنقة حلموشة" ليصل إلى ساحة "سيدي جليس" حيّه القديم، ومكان مولده ومربع طفولته، ويشرب من العين التي تسيل دون توقف، ها هو -كما جاء في المتن الحكائي- ابن هذه المدينة، ابن تاريخها المشرف وأحلامها الجميلة، ها هو يعود إليها اليوم وفي حلقه مرارة الغربة وغصة الاغتراب (ونيسي، 2007،صفحة7-15-219) تستحضر الكاتبة كل معاني الافتخار بالمكان والزمان بالتاريخ لتعرض تعدد الهويات عبر تاريخ المدينة، والتي تنصهر في سبيل الهوية الوطنية، فالاعتزاز بالمكان ما هو إلا تصوير لشدة ارتباط "الأنا" بالهوية الوطنية.

4- الأنساق الثقافية والحضارية:

تشتمل الثقافة على كل الجوانب الحياتية التي تشكّل الانتماء الفردي و الجماعي، فهي ذاتية الاكتساب، تعبّر عن قيمة الإنسان والمجتمع بوصفها العامل الذي يتحكم في نمو الأفراد والجماعات، وهي "القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية، طابعاً تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى" (رضوان، 2012، صفحة86) فالهوية الثقافية هي التي تميز الفرد والجماعة بخاصية التفرد عن الغير وتعد من "أخصب مجال للدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والنفسية نظرا لما يكتسيه مجال الثقافة من تعدد وتنوع يبلغ الصراع أحيانا كما هو الحال في راهننا الحضاري، ولا يخرج

الأدب والنقد عن مقاربة موضوع الهوية، وهي تتجلى وتتخفى في المتون الروائية، التي تعتبر حيوات ناطقة لفئات ومجموعات بشرية..." (رايس، 2017، صفحة183) تتجسد الهوية الثقافية في المتن الروائي الذي نحن بصدد دراسته من خلال اللغة والدين والعادات والتقاليد والتعليم والتراث العريق، في محاولة لتجسيد تلك العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" من أجل النمو الحضاري.

تدرك الروائية مدى أثر الثقافة في تصوير الهوية لهذا نلحظ ذلك التواتر الثقافي في المتن الروائي، متجسداً من خلال قولها:" إن الحضارة لا يمكن أن تنمو من طرف شعب واحد، أو ثقافة واحدة، إنها ذلك التلاقح والتفاعل الإبداعي بينها، مع اختلاف إنسانها أو مذهبها، إنها هذا الأمر الجميل الذي يحصل للإنسان هنا وهناك وهنالك يفنى الإنسان وتمر الأجيال لتبقى تلك الحضارة تركة للعالم أجمع وثراء للإنسانية كلها...هذه هي الحضارة" (ونيسي، 2007، صفحة8) ها هي الروائية تؤكد على أهمية الآخر في بناء الحضارة وبالتالي بناء ثقافة الأنا التي تنتج عن ضرورة التلاقح مع الآخر، وذلك لأنه "لا يمكن تجاهل الدور الذي يضطلع به الآخر بشأن تصور الذات لذاتها، ولا يمكن تجاهل الصراع الذي يحصل بين الذات والآخر، فالآخر حاضر بكيفية وجوبية، إنه يشكل أفقا للذات ..." (مهيدات، 2008، صفحة37) فالذات الكاتبة لا تقابل الآخر بالرفض ولكنها تشيد بفضله في بناء وتطور "الأنا" بقولها "ما المانع أن نقلد الآخرين، في الأمور الجميلة والعادات الطيبة؟" (ونيسي، 2007، ص187) وبالتالي تقر الذات بضرورة مراعاة الوعي في محاكاة "الآخر" والتلاقح معه.

بعدما كان الحلم هو محاربة "الآخر" المستعمر تنقلب الوقائع، ليصبح الإقبال على الآخر هو الحلم، من خلال الإعجاب بالحضارة الغربية والانبهار بكل ما هو غربي، ليس "الآخر" الذي يتجلى في فرنسا فقط بل حتى آسيا وكل أوروبا وتعبر عنه الكاتبة بقولها "ما هذا اللهاث على الغرب؟ والإعراض عن الشرق؟ ما هذا الإقبال على بلد مستعمر، سبق ورفضنا منه كل شيء؟ تاريخه، نظامه، لغته، وكل أمر يتعلق به، من قريب أو بعيد، عدو لم يترك لشعبنا أية فسحة منطقية أو موضوعية أو إنسانية..." (ونيسي، 2007، صفحة214) رغم ضرورة التلاقح الذي تدعو إليه الروائية، إلا أنها دعوة يتخللها الحذر في التعامل مع الآخر، او ليس هو العدو؟ وهي دعوة للاستمرارية والمحافظة على الهوية الوطنية، فلا مفر من الآخر لبناء الحضارة من هنا "تبرز أهمية الآخر بالنسبة للهوية الذاتية التي تستمد مشروعية كينونتها من هيئة غير ذاتها. (البازغي، 2002، صفحة173)

تفتخر الروائية بلغتها العربية وتقدّسها كونها العامل الذي يرسخ الوجود العربي، من خلال تلك المطبعة التي كانت "وقت الاستعمار تطبع باللغة الفرنسية...واليوم كتبت على بابها كلمة "النصر" بالحرف العربي، جريدة الجزائر المستقلة، في هذه المدينة المتعددة الأصول والأبعاد، كان الحرف العربي سائدا حتى أيام الاستعمار، عبر صحافة رائدة وفكر راق..." يدل هذا على حرص الروائية على تمجيد العربية والعروبة، وتمسكها بأسباب الوجود الذاتي والجماعي فنجدها في أكثر من موضع تشيد باللغة العربية حيث توظف شخصية "والد كمال العطار" الذي يعتز بلغته وعروبته هو الآخر، ويحرص على تعليمها لابنه "كمال العطار" بقولها "كان أبو كمال وهو صغير عندما يعثر في الشارع على ورقة مكتوبة بالحرف العربي، يمسح عنها الغبار، ثم يضعها فوق جبينه بعد أن يقبلها، ثم يطويها بعناية، ويضعها في جيبه، وعندما يرجع للبيت ينادي كمال بلهجة جادة، ليجلس الابن قبالة والده، الذي يخرج الورقة المطوية، وكأنها المصحف

الشريف، ثم يطلب منه أن يقرأها بنظرة آمرة...ويقرأها كمال...إن ابنه لا يدري أنه يحسن القراءة ويفهم جيدا ما في الورقة، فقط يريد بحركته أن يشرك ابنه الصغير في الاهتمام بالحرف وتمجيد اللغة العربية، والتي حاربها المحتل مثلما ما حارب طل ناطق بها" (ونيسي، 2007، صفحة10) تستعين الروائية بكل معاني الوقار لتعبر عن هويتها من خلال تمسك شخصية الوالد باللغة العربية، وتمجيده لها ورغبته وإلحاحه على تعليم ابنه الحرف العربي.

كانت الشخصية البطلة شخصية مثقفة ومتعلمة حيث كان يحفظ القرآن الكريم ومحباً للمطالعة مثل "أوراق الورد، وفلسفة الجمال، ورسائل الأحزان للرافعي، ديوان المتنبي، البخيل لموليير...عناوين كثيرة، كان والده قد اشتراها له في مرحلة الدراسة بالثانوي، وقد خاف عليه من أن تطغى عليه الثقافة الفرنسية، فيجهل الثقافة العربية، وكم كانت فرحة والده كبيرة، عندما وجده يوما يقرأ ديوان المتنبي..." (ونيسي، 2007، صفحة187) فالكاتبة تصور الثقافة العربية من خلال ذلك التعليم الذي كان يتمتع به "كمال العطار" وذلك الحرص من والده على تلقينه كل ما هو عربي؛ حيث تأصّل فيه حب العربية منذ الصبا إلى الكبر ، وحبه للمطالعة كبُر معه، ها هو في زمن السرد الحاضر كما تجلى في هذا الشاهد "وعندما يقرأ مرة أخرى، وهو في هذه السن إلياذة ألف ليلة وليلة، أدرك أن هويته رغم الهشاشة والارتجاج، بقيت هوية حضارية، تربة صالحة للقاح، وموسما دائما للنماء" (ونيسي، 2007، صفحة238) فالهوية الذاتية هي هوية حضارية خصبة قابلة للتطور.

تُوظّف الروائية شخصية "الرشيد"، صديق "كمال"، في سياق حواري يكشف البعد الثقافي للشخصيات، حيث يقدّم نفسه بوصفه كاتبًا وعضوًا في اتحاد الكتاب، بما يعكس انخراطه في الفعل الإبداعي وإسهامه في الحقل الثقافي. ويشي هذا التمثيل بأن شخصيات الرواية لا تُبنى اعتباطًا، بل تُصاغ ضمن إطار معرفي وثقافي يعكس وعيًا بأهمية الثقافة في تشكيل الهوية الوطنية، وتعزز هذا البعد من خلال استحضار نموذج "شيخ المعلمين (لحسن الشاذلي)"، الذي يُقدَّم بوصفه رمزًا للعلم والتربية في فضاء مغاربي موحّد، حيث كان يربط بين المعرفة والانضباط، ويحثّ طلبته على تحمّل مشقة السهر في سبيل تحصيل علوم الدين والدنيا، في صورة تجسد قيمة "جهاد النفس" في طلب العلم. ويكشف هذا النموذج عن مركزية المعرفة في بناء الذات، وعن ارتباط الهوية بمنظومة تعليمية أصيلة تقوم على التكوين الروحي والعلمي معًا. وعليه، فإن الهوية الجزائرية، كما تُصوّرها الرواية، لا تنفصل عن بعدها الثقافي والعلمي، بل تتأسس عليهما، إذ تتشكل من تضافر المعارف وتنوع المرجعيات، بما يجعلها هوية حضارية منفتحة وقابلة للتطور. (ونيسي، 2007، صفحة105-237)

يُعدّ الدين الإسلامي أهم روافد تشكيل الهوية الوطنية لذلك نلحظ ذلك الامتداد الديني والتمسّك بالعقيدة الإسلامية عبر ثنايا الخطاب الروائي، بداية من توظيف النص القرآني من خلال الآية11من سورة الضحى " وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ" ،وكذلك الآيتان(8-9) من سورة التكوير "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ" ولم يقتصر الأمر على عرض النصوص الدينية من القرآن الكريم فقط، بل تعداه ليشمل كل أركان الإسلام، والدعاء والشكر والحمد، والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف؛ حيث تستحضر الكاتبة حلم زيارة البقاع المقدسة لكل مسلم على لسان الشخصية "مراد" الابن البار الذي يرغب في تحقيق رغبة والده في زيارة البقاع المقدسة، ليرد عليه والده "عمي حسين" بقوله: " اسمع يا ولدي، إنني سعيد بكلامك، ولكن الحج الذي أريده، إنما أريده بمالي أنا، بعرق جبيني أنا،

وليس بمال أحد، حتى لو كان أنت، صحيح أن الإمام في الجامع، قال لنا أن الدين يقول: أنت ومالك لأبيك، لكنني شخصيا، لا يمكن أن أشعر بحجتي كاملة، إلا إذا تعبت أنا عليها، إن المغفرة التي أطلبها ستتجمع مع قطرات العرق الحلال، التي تسقط من جبيني أنا، وليس أنت. "(ونيسي، 2007، صفحة140)

توظّف الروائية معالم الدين من خلال توظيف شخصية الإمام ابن باديس، سيد العلماء والأتقياء، الذي كان" يعلمنا دائما أن تقوى الله تكمن في محبة الناس وحسن المعاملة وزرع الخير والرحمة بين بني البشر..." (ونيسي، 2007، صفحة205) فالدين الإسلامي دين تسامح ورحمة، والهوية الوطنية تقوم على المبادئ الدينية والتعاليم الإسلامية، لذلك تستحضر الكاتبة الدين عبر واقع الرواية الذي يحفل بالعبارات الدينية (كالحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسبحان الله...) كيف لا يندمج الخطاب الروائي مع الخطاب الديني وهو بصدد تصوير مجتمع ذا عقيدة إسلامية، كبر وترعرع وسط التعاليم الدينية، وشكلت الزاوية والمسجد، المعلم الأكثر صموداً في سبيل التمسك بالهوية.

تشغل العادات والتقاليد الحيّز الأكبر في الرواية فلم تغفل الروائية عن تصوير المجتمع الجزائري بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة، بدءًا بتوظيف الموروث الشعبي من خلال الاستشهاد بالأمثلة الشعبية في أكثر من موضع كالآتي:

"وقديما قالو: لا تظلم الضعيف أو الجبان، لأنك بذلك ستعلمه الشجاعة.

"حرك حرك...طاحلو سروالو في البطحا...ما احلى هذ الشطحى"

"يا م جعيدرة، لابسة قنيدرة"...

"لأن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام " (ونيسي، 2007، صفحة124-165)

تبني الأمثال الشعبية ملامح الشعب، فهي جزء مهم من فكره وأسلوب حياته ومعتقداته ومعاييره، فالموروث الشعبي له تأثير مهم على سلوك الفرد والجماعة، خاصة أنّه نتاج تجربة جماعية ولّدت عبرة أو حكمة، فقد نبعت من المجتمع وارتبطت بوعي ذاكرته واحتضنها في وجدانه، وكثيراً ما تشكّل ملاذاً للعديد من السلوكيات الاجتماعية؛ ولم تغفل الروائية عن هذه الحقيقة فاستعانت بالموروث الشعبي وبمختلف العادات والتقاليد من أجل ترسيخ الهوية الوطنية.

تبنت الكاتبة من خلال المعتقدات الدينية الطابع الصوفي في الخطاب الروائي، وذلك عبر توظيفها للرموز التي تدل على النزعة الصوفية بقولها على لسان الشخصية الرئيسية "عندما علمت أمي بحبي للفتاة اليهودية، نذرت أنها لو أشفى من هذا الداء...لزارت أهم وال صالح خارج المدينة "سيدي محمد الغراب" طبعا بعد تقديم آيات الطاعة والاعتراف بشمعة ومنديل وطمينة، وطبق كسكسي للمريدين حول قبة "سيدي راشد" الخضراء داخل المدينة..." (ونيسي، 2007، صفحة94) فها هي تستحضر المريد الذي يعكف على خدمة شيخه ووليه وهذه الكلمة هي رمز صوفي تحتضنها الرواية في أكثر من مقطع، فالمدينة في اعتقاد الروائية "سلطانها(سيدي راشد) بمقامه ومئذنته الخضراء، حارسا للمدينة ومن بالمدينة من مريديه ومريداته؟" (ونيسي، 2007، صفحة234) يُبرز هذا المقطع حضور البعد الصوفي بما يحمله من طقوس وممارسات مرتبطة بزيارة الأولياء وخدمة المريدين لشيوخهم، حيث تتحول هذه العناصر إلى رموز ثقافية وروحية داخل المتن الروائي، مما يدل على الاهتمام بالجانب الروحي والديني بوصفه أحد المكونات الأساسية في تشكيل الهوية الوطنية.

شكّل "الولي الصالح" المحور الرئيسي الذي تلجأ إليه النساء لحل مشاكلهن، ها هي والدة "كمال العطار" تستنجد به هي الأخرى، عندما وقع ابنها في ذلك الحب المستحيل "حب يهودية" فاعتبرته أمه "عتيقة" أنه أصيب بداء لا شفاء منه، داء الارتباط باليهودية ، إلا أنها عقدت العزم ووجدت ضالتها عند الأولياء الصالحين، كما يتضح في هذا المقطع "وتقسم الأم يمينا أن تذهب للولي الصالح "سيدي محمد الغراب " خارج المدينة، فتطعم بيديها سلاحف بحيرته المباركة، وتزور أيضا وتشعل شموعا عند قدمي (بوالجبال، وسيدي ميمون، ولالا فريحة) إن الأولياء قد استجابوا لدعائها وأشفقوا على حالها، ولا بد من الوفاء بالنذور" (ونيسي، 2007، صفحة65)

تستحضر الروائية العادات والتقاليد الاجتماعية، تصف اللباس الجزائري بدءاً بالعمامة إلى البرنوس المطرز، وعربة الكاليش، ولعبة الغميضة التي يتسلى بها الأطفال، ثم "الداية" تلك الممرضة والطبيبة التي لم تعرف المرأة الجزائرية غيرها في تلك الحقبة من الزمن، والتي فشلت في مرة من المرات في إنقاذ "نفيسة وجنينها" (زوجة كمال) ليقول بعدها الطبيب، بين دموع وأنات الحاضرين "البركة فيكم، عظم الله أجركم ومنحكم الصبر..."، كما لا تنسى تلك المأكولات التقليدية الجزائرية وعلى رأسها "البراج" هذه الأكلة التي لا يخلو بيت جزائري من احتضانها إلى يومنا هذا، مما يدل على حرص الفرد الجزائري على التمسّك بهويته عبر مختلف تفاصيلها .

تتجسد الهوية الثقافية في شخصية البطل من خلال ولعه بالموسيقى "الموسيقى هذا اللسان الناطق لأكثر من لغة، ورث هذا الولع عن أمه "عتيقة" فليس أحب إلى نفسه أن يصغي إلى أمه، وهي تدندن قصائد المالوف كل مرة، كان ينبهر بها وبالموسيقى، وشب على ذلك وبرع في استعمال آلة الكمنجة مع رفيقه مراد ، أحب كل أنواع الموسيقى فيما بعد...وهو إلى اليوم لا يزال كذلك، يقتني كل جديد وقديم من طبع المالوف في مكتبته الموسيقية..." (ونيسي، 2007، صفحة27) تستعين الكاتبة في هذا المشهد بأكثر من شخصية للتمسك بثقافتها والتعبير عن هويتها فإلى جانب كون الثقافة مقوّم أساسي لهوية الفرد والجماعة، فهي سلاح نضالي ضد الاستعمار من خلال التمسّك بالثقافة العربية الجزائرية في محاولة للتصدي لسياسة المستعمر.

تترك الكاتبة خاتمة الرواية مفتوحة وتصور تلك الحسرة وخيبة الأمل التي يشعر بها "كمال العطار" على شكل حلم ورؤيا تتأرجح بين النوم واليقظة، فتصوّره في طاولة اجتماع مع رموز الثورة والدين والحضارة، كما جاء في المقطع " رأى ماسينيسا، والكاهنة، وعقبة بن نافع، وعبد القادر بن محي الدين، وأحمد باي، وبوعمامة، ولالا فاطمة، رأى بن باديس، وبن بولعيد، وبن مهيدي، وزيغود، وعميروش، ولطفي، وحملاوي، ومريم ،وفضيلة، ورأى حمدان خوجة كان يكتب محضر الاجتماع، وقد عنونه بخط عريض "المرآة"...رآهم جميعاً تعلو محياهم مسحة من الغضب الهادئ، والأسى المستكين، كانوا كأن شيئا عزيزا غاليا سرق منهم، نهب، استحل، شوه، تمزق، أهين..." (ونيسي، 2007، صفحة271) توظف الروائية هذا المقطع لتدل على الخيبة التي وقع فيها الشخصية البطل، الذي يعاني عذاب الضمير والحسرة وكأنه لم يحافظ على الأمانة التي تُركت له، فتتبنى زهور ونيسي خطاباً سياسياً يخفي وراءه الكثير من خلال هذا الحلم.

من هذه المعطيات التاريخية والثقافية يستمد الفرد الجزائري إحساسه بالهوية وبالانتماء، ويشعر بأنه "يشترك مع عدد كبير من أفراد الجماعة في عدد من المعطيات والمكونات والأهداف، وينتمي إلى ثقافة مركبة من جملة من المعايير

والرموز والصور "(رضوان، 2012، صفحة87) وهكذا فإن هذا الخطاب الروائي يحمل في طياته أبعاداً تاريخية وثقافية ودينية واجتماعية وسياسية واقتصادية، وتسعى الروائية إلى دمج كل هذه الأبعاد وتحويلها إلى هوية واحدة هي الهوية الوطنية الجزائرية.

الخاتمة:

قاربت دراستنا خطاب الهوية في المتن الروائي الجزائري، في محاولة لقراءة مختلف الروافد التي سخّرتها الكاتبة للتعبير عن انتمائها وتعلقها بوطنها، ومن خلال تحليل الرواية توصّلنا إلى جملة من النتائج:

- ✓ إن المحتوى المعرفي للرواية متعدّد، مما أدى إلى تنوع الروافد التي تسهم في تشكيل الهوية الوطنية الجزائرية فيها، كما تحاول الروائية تسخير الذاكرة في سبيل صياغة وتثبيت مقومات الهوية الوطنية، وقد عبّرت الرواية على رحلة البحث عن الذات الجزائرية عبر جسور الذاكرة، وشكلت همزة وصل بين الأنا والآخر، الأنا في ظل السيادة الوطنية والافتخار بالتاريخ المجيد وبالهويات المتجذّرة العريقة، والآخر الذي تشكل في ظل الهيمنة الاستعمارية ، من هنا تعددت الروافد والآليات التي تبنّتها الكاتبة بوصفها خطاباً تتجسّد من خلاله الهوية الجزائرية.
- ✓ شكّل التاريخ المجيد وثورة التحرير الوطني المنبع السخي الذي تنهل منه الكاتبة قيم البطولة والانتصار والتضحية، التي تعدّ المكوّن الرئيسي في بناء سيادة الشعب الجزائري، ورغم كل محاولات الطمس والتدنيس والمعاناة، إلا أنّ الفرد الجزائري فرض وجوده في سبيل انتزاع حريته والمحافظة على الهوية الجزائرية.
- ✓ الانتماء الوطني عاملٌ رئيس في حرية الفرد والجماعة، من هنا تصور الروائية أحضان الوطن متلذذة بوطنيتها، فتنطلق من قسنطينة بوصفها رمزاً للانتماء المكاني للذات، إلى الذات الوطنية الجزائرية التي تقدّس الوطن في مختلف تفاصيله، فرغم خيبة الأمل التي تعاني منها الذات، إلا أنها تبقى متمسكة بمدينتها وبوطنها الذي هو روح الوجود والكينونة.
- ✓ تُبرز زهور ونيسي تنوع ثقافة الجزائريين وغناها من خلال التمسك بالعروبة واللغة والدين الإسلامي والعادات والتقاليد، التي شكّلت في أبسط تفاصيلها هوية الذات الجزائرية، ولم تزد هيمنة الآخر إلاّ من وعي الأنا وإدراكها لمدى ضرورة الحفاظ على مختلف الروافد التي تقوم عليها الهوية الوطنية.
- ✓ أضحت الرواية مرآةً تعكس الهوية الوطنية والتي يجد فيها القارئ ضالته، حيث تقدم إجابات قيّمة عن تساؤلات الذات الفردية حول المنابع التي ساهمت في تكوين الذات الجماعية، وبالتالي تظل مسألة الهوية قائمة في المتون الروائية الجزائرية المعاصرة، كاشفة عن تأثيراتها في الفرد والمجتمع، ويبقى الخطاب الروائي عالما قائما يطرح إجابات نسبية.

قائمة المراجع:

1. الأخضر بن السائح. (2012). *سرد المرأة وفعل الكتابة- دراسة نقدية في السرد وآليات الكتابة*. الجزائر: دار التنوير.
2. باتريك شارودو، دومينيك منغنو. (2008). *معجم تحليل الخطاب*. (ت، عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، المترجمون) تونس: دار سيناترا.
3. حسن حنفي. (2012). *الهوية*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
4. زهور ونيسي. (2007). *جسر للبوح وآخر للحنين رواية*. الجزائر: منشورات زرياب.
5. سعاد بولشفار. (2020). تمثل الهوية الثقافية في الأدب الجزائري في إطار الأنا والآخر. *مجلة العلوم الإسلامية والحضارة*، 390-405.
6. سعيد علوش. (1985). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة*. بيروتدار الكتاب العربي.
7. شهرة درنوسي. (2020). إشكالية الهوية جدل بين الآخر والأنا- عبد الله شريبط أنموذجا. *مجلة متون، مج11*(4)، 90--100.
8. عبير بسيوني رضوان. (2012). *أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية*. القاهرة: دار السلام.
9. علي بن محمد الشريف الجرجاني. (1985). *كتاب التعريفات*. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.
10. ماجدة حمود. (2010). *صورة الآخر في التراث العربي*. بيروت، الجزائر: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف.
11. مصطفى عبد الغني. (1999). *قضايا الرواية العربية*. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
12. ميجان الرويلي، وسعد البازغي. (2002). *دليل الناقد الأدبي*. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
13. ميلود بن عمار. (02 03, 2007). *الشروق اليومي*. تم الاسترداد من الشروق أونلاين: https://www.echoroukonline.com
14. نهال محيدات. (2008). *الآخر في الرواية النسوية في خطاب الجسد والمرأة والثقافة*. عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي: عمان، الأردن.
15. وهيبة سماعيل، ورشيد رايس. (31 12, 2017). تضايف اللغة والهوية في رواية (مملكة الفراشة) لواسيني الأعرج مقاربة ثقافية. *مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية*، 182-197.